رقم البحث: 31

منهج أبي عبيدة في دراسة الكلمات القرآنية مقارنة مع مفسري القرون الخمسة الأولى "دراسة تحليلية نقدية"

د. عبد الماجد نديم

قسم اللغة العربية، جامعة بنجاب، لاهور – باكستان

pabdulmajid@gmail.com

ملخص

كتاب أبي عبيدة "مجاز القرآن" من باكورة الأعمال القرآنية، في تفسير غرائب القرآن الكريم، ومشكلاتها. وظلّ مرجعاً بين الدارسين. ومن أكبر ميزاته اهتمامه بالاستشهاد اللغويّ عندما لزم الأمر، ولا سيّما بالشعر العربي، حتى ورد أكثر من ألف وسبعين (1070) موضعاً فيه. وله فيه منهج خاصّ أثّر في تفاسير المتأخّرين. هذه المقالة تقدّم نموذجًا لدراسة كلمةٍ واحدةٍ "بَرْدًا" في الآية 24، من سورة النّبأ ﴿لَا يَذُوْقُوْنَ فِيْهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً﴾، تمثِّل منهج أبي عبيدة في دراسة الكلمات القرآنية، بعد توضيح هذه الكلمة في ضوء القرآن الكريم وما جاء به أبو عبيدة يقارن الباحث منهج أبي عبيدة مع المفسرين الآخرين من القرون الخمسة الأولى، ويدرسها دراسة نقدية حتّى تتبيّن ريادة أبي عبيدة في مجال اللغة والاستشهاد. فهذه الدراسة محاولة للعثور على بذور الدراسات اللسانية الّتي نجدها بوفرة في التفاسير القرآنية في القرون الأولى. ولاشكّ أنّ أبا عبيدة . حقّاً . يعدّ من مؤسّسي هذا المنهج اللساني في فهم معاني القرآن الكريم، وله تأثير في التفاسير القرآنية الّتي صنّفت بعده.

الكلمات المفتاحية: مجاز القرآن، أبو عبيدة، الدلالة، الشعر، الاستشهاد

مقدمة

كان كتاب أبي عبيدة ''مجاز القرآن'' من باكورة الأعمال القرآنية، وهو من أشهرِ الكتب في تفسير غرائب القرآن الكريم، ومشكلاتها. وقد عني به كثير من العلماء و المفسّرين طوال العصور، وظلّ مرجعاً أصيلاً بين الدارسين؛ اعتمد عليه ابن قتيبة في كتابيه ''المشكل'' و''الغريب''، والبخاري في ''الصّحيح'' في كتاب التفسير، والطّبريّ في تفسيره ''جامع البيان''، وأبو عبدالله اليزيدي في''غريب القرآن''، والزّجاج في ''معاني القرآن''، وابن دريد في معجمه ''جمهرة اللغة''، وأبو بكر السجستاني في ''غريب القرآن''، وابن النّحاس في ''معاني القرآن''، والأزهري في ''التّهذيب''، وأبو علي الفارسي في ''الحجّة''، والجوهريّ في''الصّحاح''، وأبو عبيد القاسم بن سلّام الهرويّ في ''الغريبين''، وابن بري في حواشي الصّحاح وغيرهم من المتقدّمين، ومن أهمّ من استفاد من كتاب المجاز من المتأخرين ابن حجر العسقلانيّ في''فتح الباري''[1].

اهتمّ أبو عبيدة بالاستشهاد اللغويّ عند بيان دلالة الكلمة، أو الاستدلال للأسلوب القرآني، وللشعر منه نصيب أسدٍ، حتى ورد الشعر في مجاز القرآن أكثر من ألف وسبعين (1070) موضعاً لزهاء مائتي ثلاثين (230) شاعراً للتمثيل أو الاستشهاد، وجاءت بعضها مكرّرة وقد بلغ المجموع بعد حذف المكرّرات تسعمائة بيت تقريبًا. ولقد تأسّى بأبي عبيدة من جاء بعده من المفسّرين والعلماء في الاستشهاد بالشعر لتوضيح معاني الكلمات القرآنية أو تحديدها واحتجّوا بالشعر على المشكلات القرآنية وغرائبها ودرسوا ما فيها من نقاطٍ واستفادوا منها. هذا موضوعٌ يستحقّ دراسة مستقلّة حول تأثيرات أبي عبيدة اللغوية في التفاسير القرآنية والمعاجم العربية والكتب الأدبية.

وأمّا دراستنا فهي حول منهج أبي عبيدة في دراسة الكلمات القرآنية مقارنة مع مفسري القرون الخمسة الأولى، وقد خصّصنا لهذا البحث موضعًا واحدًا من سورة النّبأ، وذلك ما ورد في توضيح دلالة الكلمة ''بَرْدًا'' في الآية 24، ﴿لَا يَذُوقُوْنَ فِيْهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً﴾. يدرس الباحث هذا الموضع دراسة تحليلية للكشف عن الغرض الذي جاء له أبو عبيدة استشهادا، وذلك بالعثور على الأركان الأساسية للشهادة: 1. المستشهد لها (أي المسألة) 2. المستشهد عليه (أي جواب المسألة)، 3.

[1] لهذا التفصيل راجع: مقدّمة المحقق لمجاز القرآن، ص 17.

والمستشهد به (أي الشاهد الّذي استشهد به على جواب المسألة)، ومن ثمّ يبدأ بالدراسة النقدية مقارنة مع مفسّري القرون الخمسة الأولى مقتبسًا النصوص من تفاسيرهم حول المسألة المذكورة، حتّى يتبيّن منهج أبي عبيدة ووجه اختياره ذلك المعنى تحديدا على محكّ اللغة والعقل، وريادته في مجال اللغة والاستشهاد أو شذوذه في المسألة المتعلّقة.

فهذه الدراسة محاولة للعثور على بذور الدراسات اللسانية الّتي نجدها بوفرة في التفاسير القرآنية في القرون الأولى. ولاشكّ أنّ أبا عبيدة ـ حقّاً ـ يعدّ من مؤسّسي هذا المنهج اللساني في فهم معاني القرآن الكريم، وله تأثير في التفاسير القرآنية الّتي صنّفت بعده.

وأمّا النسخة الّتي يستفيد الباحث منها فهي من رواية أبي الحسين محمد بن هارون الزّنجانيّ الثّقفيّ (مجهول)، قال: أخبرنا أبو الحسن على بن عبدالعزيز (287هـ) ، قال: حدثنا على بن المغيرة الأَثْرم (232هـ)، عن أبي عبيدة مَعْمَر بن المثَنَّى التَّيْمِيّ. وقد حقّق هذه النّسخة الدكتور فؤاد سزْكين، وهي من مطبوعات مكتبة الخانجي بالقاهرة.

ومن الجدير بالذّكر أنّ أبا عبيدة قد سمّى هذه السورة أي سورة النبأ ((سورة عمّ يتساءلون)) بأوّل آيتها، ونجد في سورة النبأ موضعين جاء فيهما بالشاهد الشعريّ، ولكنّ مقالتنا هذه بسبب ضيق الوقت والأوراق المحددة ستكتفي بالموضع الواحد ''بَرْدًا''في الآية 24، ﴿لَا يَذُوْقُوْنَ فِيْهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً﴾ كما أشرنا إليه.

يقول أبو عبيدة في توضيح معنى كلمة ''برد'': ((﴿برداً ولا شراباً﴾ نوماً ولا شراباً، قال الكنديّ: *فصدَّبِيْ عنها وعن قُبلتِها البَرَدُ* أي: النعاس))[1].

قبل أن ندرس معنى الكلمة من خلال هذا النص المذكور ونقارن منهج أبي عبيدة مع مفسري القرون الخمسة الأولى، ينبغي لنا بيان ورود مادة ''ب ر د'' في القرآن الكريم:

وردت من هذه المادة ثلاث كلمات في القرآن الكريم: بَرْد، بَرَد، بَارد. وعدد ووردها خمس مرّات؛ وهي هكذا:

[1] مجاز القرآن 282/2.

بَارِدٌ: وردت هذه الكلمة مرّتين: في سورة ص (42/38) ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾. وفي سورة الواقعة (44/56) ﴿لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾.

بَرْداً: وردت مرّتين: في سورة الأنبياء (69/21): ﴿قُلْنَا يا نَارُ كُوْنِيْ بَرْداً وسَلاماً على إبراهيم﴾. وهنا في سورة النبأ (24/78): ﴿لَا يَذُوْقُوْنَ فِيْهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً﴾.

بَرَدٍ: وردت هذه الكلمة مرّة واحدة: في سورة النور (43/24) ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِنْ جِبَالٍ فِيْهَا مِنْ بَرَدٍ﴾.

''ب ر د'' أصل يدلّ على انخفاض الحرارة فمنه المصدر ''بَرْد'' واسم الفاعل ''بَارِد'' واسم جنس إفراديّ ''بَرَد'' بفتح الراء، هو ما يبرد من المطر في الهواء فيتجمّد ويصبح قطعا صغيرة من الثلج.

لم يتصدّ أبو عبيدة لبيان معنى هذه الكلماتِ في مواضعها، ولعلّ السبب يرجع إلى أنّه معلوم عند الجميع، ولم يشعر بحاجة إلى شرحها، ولكنّه هُنَا في سورة النبأ يُبيّن معنى الكلمة ملازماً الإيجاز البليغ الّذي يمتاز به تفسيره. ويكتفى ببيان معناها بكلمة واحدة، وهو: النوم ـ ولا يذهب في التّفصيل الّذي نراه عند معاصريه الأخفش والفرّاء وغيرهما. ويضع الكلمة الّتي جاءت معطوفة عليها ''شراباً'' كما هي، وعلى الفور بعد ذلك يأتي بجزء البيت الشاهد على المعنى الّذي ذهب إليه، وينسبه إلى الكنديّ. وأمّا من حيث المعنى فيتجلّى لنا أنّه اكتفى ببيان المعنى المراد في ضوء السياق ولم يتصدّ للمعنى الكلمة الحقيقي، ومن هنا يتبيّن لنا أسلوبه في الإيجاز.

فهنا حسب بيانه صار المعنى أنّ الطاغين لا يذوقون في جهنّم نوماً ولا شراباً، وإلى المعنى نفسه ذهب متقدّموه ومعاصروه من المفسّرين مثل ابن عباس رضي الله عنهما(68هـ) في إحدى روايتيه: البرد: النّوم، وقال أنّها لغة هذيل[1]، والرواية الثانية عنه ذكره الفرّاء أنّه قال: لا يذوقون فيها برد الشراب ولا الشراب.[2]، الرّواية الثانية تدلّ على أنّ الكلمة في معناها

[1]لينظر: عبد الله بن عباس وغريب القرآن 22 – 23؛ ومعالم التنزيل 438/4؛ وتنوير المقباس 499؛ وتفسير القرطبي 20/22؛ واللغات في القرآن 62.

[2]معاني القرآن للفراء 228/3.

الحقيقيّ. وزيد بن علي (122هـ) ذهب إلى أنّ: ((البرد النوم))[1]. والكسائي (189هـ) ذكر ببعض التفصيل: ((البرد هنا النوم، والعرب تسمّيه بذلك لأنه يبرد سورة العطش، ومن كلامهم منع البردُ البردَ.))[2] وكذا يقول الفرّاء (207هـ) بعد ذكر رأي ابن عباس: ((وإن النوم ليبرد صاحبه. وإن العطشان لينام فيبرد بالنوم.))[3].

نرى أنّه لم يختلف أحد في المعنى، سوى رواية عن ابن عباس في الخلاف، ولم يستشهد أحدٌ على هذا المعنى بشهادة لغويّة بل اكتفى بنقل المعنى فقط؛ سوى الكسائي الّذي استشهد بمثلٍ عربيٍّ (منع البرد البردَ). فنجد في تراثنا التفسيري أبا عبيدة أوّل من استشهد بالبيت الشعري لتفسير معنى هذه الكلمة. إذ استشهد بجزء بيت من الشعر للكنديّ، وهو الشاعر المعروف امرؤ القيس، وعجيبٌ أنّ أبا عبيدة لم يذكره باسمه المعروف بل أتى بنسبته الّتي لا يعرفها الكثيرون، سوى من وقف على تاريخ الأدب العربيّ.

ومن المفسّرين الّذين جاءوا بعده منهم ابن المبارك اليزيدي (237هـ) هو . أيضاً . ذهب إلى المعنى نفسه فقال: ((النوم))[4] وهو . أيضاً . اكتفى ببيان معنى الكلمة ولم يستشهد له بشيءٍ مّا. وإلى نفس المعنى ذهب ابن قتيبة: (276هـ) مستشهداً ببيت آخر، لم ينسبه إلى أحدٍ (وفي نسبته اختلاف)[5]، فقال: ((أي نوماً. قال الشاعر:

وإنْ شِئْتِ حَرَّمْتُ النِّساءَ سواكُمُ * وإنْ شِئْتِ لم أطعمْ نُقَاخاً ولا بَرْدا [الطويل]

و''النقاخ'' : الماء؛ و ''البرد'' : النوم. ويقال: ''لا يذوقون فيها برد الشراب''))[1]. ونرى هذا البيت في تفسير أكثر المفسّرين الّذين استشهدوا لهذه الكلمة من كلام العرب وهم نسبوا هذا البيت إلى العرجي. وإلى المعنى نفسه ذهب ثعلب (291هـ) فعنه: ((لا يذوقون فيها نوماً؛ وأنشد للعرجي[2]:

---

[1] تفسير غريب القرآن المجيد 293.

[2] معاني الكسائي 250.

[3] معاني الفراء 228/3.

[4] غريب القرآن وتفسيره 196؛ وتحقيق محمد سليم الحاجّ 408.

[5] وقد نسب إلى عمر بن أبي ربيعة، والعرجي، والحارث المخزومي. لينظر: ديوان العرجي 206؛ وديوان عمر بن أبي ربيعة 86/1؛ وشعر الحارث المخزومي 117؛ وإعراب القراءات السبع 431/2؛ وديوان الأدب 112/1؛ والكشاف689/4؛ وزاد المسير 420/2، و8/9؛ واللباب لابن عادل 106/20؛ والمحكم؛ واللسان (ب ر د).

فَإِنْ شِئْتِ حرّمتُ النِّساءَ سواكمُ * وإِنْ شِئْتِ لم أَطْعَمْ نُقاخاً ولا بَرْدَا [الطويل]

قال : النقاخ: الشراب، و البرد: النوم.))[3].

ولكنّ الطبريّ (310هـ) يذهب مذهباً آخر ويردّ على أبي عبيدة بدون تسميته من خلال تفسير هذه الكلمة؛ فيقول في معنى الكلمة في سياق الآية: ((لا يَطْعمون فيها برداً يُبَرِّدُ حرَّ السعير عنهم إلا الغَسَّاقَ، ولا شراباً يَرويهم من شدةِ العطش الذي بهم إلا الحميمَ. وقد زعم بعض أهل العلم بكلام العرب أن البردَ في هذا الموضع النومُ، وأنّ معنى الكلام: لا يذوقون فيها نوماً ولا شراباً. واستشْهد لقيلِه ذلك بقولِ الكنديّ:

بَرَدَتْ مَراشِفُها عليَّ فصَدَّني * عنها وعن قُبُلاتِها البَرْدُ

يعني بالبرد النُّعاسَ. والنومُ إن كان يُبَرِّدُ غليلَ العطشِ، فقيل له من أجل ذلك: البردُ. فليس هو باسمه المعروف، وتأويلُ كتاب الله على الأغلبِ من معروفِ كلام العربِ دونَ غيره.))[4]، ثمّ نقل قول الربيع [ولعلّه الربيع بن أنس (136هـ)]: ((﴿لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْدا وَلا شَرَابا إلاّ حَمِيما وَغَسّاقا﴾ فاستثنى من الشراب الحميم، ومن البَرْد: الغَسّاق. وقوله: إلاّ حَمِيما وغَسّاقا يقول تعالى ذكره: لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلاّ حميما قد أغلي حتى انتهى حرّه، فهو كالمهْل يَشْوِي الوجوه، ولا برد إلاّ غَسّاقا.))[5]

وقال الزّجاج (311هـ) في توضيح هذه الكلمة الواردة في هذه الآية[6]: ((قيل نوماً، وجائز أن يكون لا يذوقون فيها بردَ ريحٍ ولا ظِلٍّ ولا نومٍ.)).

---

[1] تفسير غريب القرآن لابن قتيبة 509.

[2] هو أبو عمر، عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان ابن عفان الأمويّ القرشيّ، لقب بالعرجي لسكناه قرية ''العرج'' قرب الطائف. شاعر إسلاميّ، غزل مطبوع، ينحو نحو عمر بن أبي ربيعة. وكان من الأدباء الظرفاء الأسخياء. ومن الفرسان المعدودين. توفي نحو 120ه. (الأعلام 109/4)

[3] معاني القرآن وإعرابه لثعلب 1142/3.

[4] تفسير الطبري 27/24.

[5] تفسير الطبري 28/24.

[6] معاني القرآن وإعرابه للزجاج 273/5.

وبالمعنى الّذي ذهب إليه أبو عبيدة، قال السجستاني(330هـ) مستشهداً بالمثل العربيّ الّذي جاء في قول الكسائي، فقال: ((أي نوماً، وقيل: راحة، ويقال في المَثَل: ((منَعَ البَرْدُ البَرْدَ)) أي أصابَني من البَرْدِ ما منعني من النوم[1].)) ذهب السجستاني إلى ما ذهب إليه أبو عبيدة ومعظم المفسّرين السابقين ولكنّه بـ ''قيل'' زاد معنى آخر وهو: ''راحة''.

ويقول أبو جعفر أحمد النحاس (338هـ) ((واختلف العلماء في قوله جل وعز ﴿لا يذوقون فيها برداً﴾ فقيل أي لا يذوقون فيها برداً يبرد عنهم السعير، وقيل: نوماً كما قال:

بردتْ مَراشِفها عليَّ فصدَّني * عنها وعن قُبُلاتها البَرَدُ [الكامل]

أي النوم والنعاس وقد يكون البرد الهدوء والثبات، كما قال الشاعر: * اليومُ يومٌ بارِدٌ سَمُومُهُ*[2]

وقد يكون البرد ما ليس فيه شدة كما رُويَ ((الصومُ في الشتاءِ الغنيمة الباردة))[3]. وهي التي ليس فيها حر السلاح. ويقال: بَرَدْتُ حره كما قال:

وعَطّلْ قُلوصِي في الركاب فإنّها * ستبرِدُ أكباداً وتُبكِي بواكيا[4] [الطويل]

وأصحّ هذه الأقوال القول الأول؛ لأن البرد ليس باسم من أسماء النوم وإنما يُحتال فيه فيُقال للنوم: برد؛ لأنّه يهدّئ العطش، والواجب أن يحمل تفسير كتاب الله جلّ وعزّ على الظاهر والمعروف من المعاني إلّا أن يقع دليل على غير ذلك.))[5]. هذا هو الرّأي الّذي ذهب إليه الطبري أنّ ''البرد'' على معناها الحقيقيّ، فردّ على أبي عبيدة ومن ذهب إلى أنّ معناها ''النّوم'' أنّه يجب أن يحمل تفسير كتاب الله على الظّاهر المعروف من المعاني إلّا أن يقع دليل على غير ذلك.

---

[1] وأما المثل فهو ذكره الزمخشري في أساس البلاغة (برد). نزهة القلوب 147.

[2] هذا البيت من الرجز ورد بأكمله في المحكم والمحيط الأعظيم لابن سيدة 322/9 (ب ر د)، بلا نسبة: اليومُ يومٌ باردٌ سمومه * من عجز اليوم فلا نلومه، وفي لسان العرب، (ب ر د): (*من جزع اليوم فلا تلومه*)

[3] سنن الترمذي: كتاب الصوم 6، باب 74، ح 797.

[4] كذا ورد هذا البيت غير منسوب في الصحاح و لسان العرب (برد).

[5] إعراب النحاس 131/5- 132.

وذكر أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي (401هـ) معنيي الكلمة المجازيّين بدون أن يرجّح أحدهما على الآخر، بل جاء لكُلِّ واحدٍ منهما بحجة من قول العرب، إذ قال: ((قال ابن عرفة (323هـ): العرب تقول: أنا أَتَبَرَّدُ بذلك: أي أستريحُ، فالمعنى: لا يذوقون فيها راحة، وقال غيره: بَرْداً: أي نوماً، والعرب تقول: منع البَرْدُ البَرْدَ، أي منع البردُ النومَ))[1]

والثّعلبي (427هـ) ينقل القول: البرد: النوم، وكذا نقل الشاهد الّذي احتجّ به أبو عبيدة، وهكذا ذكر قول العرب: منع البردالبرد، وقول الفراء: إن النوم ليبرّد صاحبه وإن العطشان لينام فيبرد غليله؛ فلذلك سمي النوم برداً، ثمّ استشهد عليه بقول الشاعر الّذي ذكره ابن قتيبة، ومن ثمّ ذكر الحسن وعطاء: لا يذوقون فيها برداً أي روحاً وراحة.[2]

وذهب مكي بن أبي طالب (437هـ) إلى أنّ معناه نوم.[3] والطوسي(460هـ) اكتفى بذكر رأي أبي عبيدة مع استشهاده فقال: ((قال أبو عبيدة: ههنا النوم، قال الكندي: * فيصدّني عنها وعن قبلتها البرد * أي النوم، فكأنهم لا ينامون من شدة ما هم فيه من العذاب، ولا يجدون شراباً يشربوه.))[4] وقال عبد القاهر الجرجاني (471هـ): ((بردَ العفو والعافية. وقيل: نوماً[5])). وإلى معنى ''النوم'' ذهب الراغب الأصفهاني (في المائة الخامسة) بعد أن بيّن معانيه المختلفة فيقول: ((أصلُ البَرْد خِلافُ الحرّ فتارةً يعتبرَ ذاتُه فيُقالُ بَرَدَ كذا أي اكتسبَ بَرْداً وبَرَدَ الماءُ كذا أي كسبه برداً نحوُ *ستَبْرُدُ أَكْباداً وتبكيَ بواكيا* ...ويقال بَرَدَ كذا إذا ثبَتَ ثُبُوتَ البَرْدِ واختصاصُ الثبوت بالبرْد كاختصاص الحركة بالحر فيقالُ بَرَدَ كذا أي ثَبَتَ كما يقالُ برد عليه دينٌ، قال الشاعر: * اليومُ يومٌ باردٌ سَمومُه * وقال آخر: * قد برد الموتُ على مُصطَلاه * أيّ برودٍ أي ثَبَتَ، ... وقولهم للنومِ بَرْدٌ إمّا لما يعرض من البرد في ظاهر جلده أو لما يعرض له من السكون وقد عُلِمَ أنّ النومَ من جنس الموتِ لقوله عزّ

---

[1] الغريبين 163/1.

[2] الكشف والبيان: 117/10. وفي الحاشية: النقاخ: الماء البارد الصافي.

[3] ينظر: العمدة: 331. والمشكل من غريب القرآن: 290.

[4] التبيان: 244/10.

[5] درج الدرر 685/2.

وجلّ ﴿الله يتوفّى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ [سورة الزمر (42/39)] وقال (لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً) أي نوماً ...))[1].

خلاصة البحث في دلالة الكلمة:

نجد أنّه وقع خلاف بين المفسّرين في دلالة ''البرد'' في هذه الآية، هل هي في معناها المعروف الظّاهر ''نقيض الحرّ'' أو المعنى المجازيّ ''النّوم'' ومن خلال هذا الخلاف نجد رأياً آخر يقول أنّه الروح والراحة، وهكذا عندنا ثلاثة آراء في معنى هذه الكلمة في ضوء هذه الآية.

أ. **النّوم**

في هذا المعنى استشهد المفسرون بكلام العرب:

1. بردتْ مَراشِفها عليَّ فصدَّني * عنها وعن قُبُلاتها البَرَدُ
2. وإنْ شِئْتِ حَرَّمْتُ النِّساءَ سواكُمُ * وإنْ شِئْتِ لم أطعمْ نُقَاخاً ولا بَرْدا
3. والمثل العربي: ''منع البرْدُ البردَ''

واستدلّوا بأنّ النوم ليبرد صاحبه، وإن العطشان لينام فيبرد بالنوم. وإذا تأمّلنا هذه الشهادة العقلية فهي تنبني على أنّه قد ثبت أنّ معنى الكلمة هنا ''النوم'' ولا غير، والحقيقة أنّنا نرى هنالك خلافاً في المعنى. وأمّا الكلام العربي الّذي أُستشهد به يمثِّل هذا المعنى وأمّا التّحديد فلا يمكن إذ وجدت معانٍ أخرى لهذه الكلمة.

ب. المعنى الحقيقيّ الظاهر المعروف: **نقيضّ الحرّ**

نلاحظ عند مؤيِّدي هذا المعنى حجّتين: أوّلا، من سياق الآية: أنّه استثنى الله من الشراب الحميم، ومن البَرْد: الغَسّاق. وقوله: إلاّ حَمِيما وغَسّاقا يقول تعالى ذكره: لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلاّ حميما قد أغلي حتى انتهى حرّه، فهو

[1] المفردات في غريب القرآن 42.

كالمهْل يَشْوِي الوجوه، ولا برد إلاّ غَسّاقا. وثانيا من جهة أصول التفسير: أنّه يجب أن يحمل تفسير كتاب الله على الظّاهر المعروف من المعاني إلّا أن يقع دليل على غير ذلك.

الحجّة الأولى في ضوء سياق الآية ضعيفة لأنّه ليس حتميّا أن الاستثناء متّصل بل من الممكن أنّه يكون استثناءً منقطعاً[1]، وأمّا الوجهة الأخرى فهي أصلٌ أنّه لو لم يقع دليل على غير ذلك فالمعنى الحقيقيّ المعروف هو الصحيح.

ج. **الرّوح والراحة**

وفي هذا المعنى قول العرب: أنا أَتَبَرَّدُ بذلك : أي أستريحُ. والحقيقة أنّ البَرْد معروف وهو خلاف الحرّ، وهو المعنى الحقيقيّ الظاهر المعروف، ولكنّنا نرى في القرآن الكريم والحديث النبوي وكلام العرب عامّة أنّ هذه الكلمة عندما استخدمت في سياق شدّة الحرّ والعذاب والمشقّة فتعني برد الراحة و العافية والسكون والراحة الهدوء، لا كما نقل نظام الدين الحسن النيسابوري (728هـ) اعتراض مؤيّدي ''النوم''في تفسيره بأنّ أهل جهنّم يجدون الزمهرير فكيف يصح نفي البرد عنهم. ومن ثمّ أجاب أن المراد ((برد له روح لا الذي فيه عذاب))[2]. وهذا هو المعنى يبدو أصحّ، والله أعلم، ولهذا المعنى شواهد من القرآن والحديث وكلام العرب.

أوّلاً، من القرآن: ﴿قُلْنَا يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ [الأنبياء: 69] في هذه الآية الكريمة أمر الله تبارك الله وتعالى النّار الّتي أعدّت لتعذيب إبراهيم أن لا تحرق إبراهيم وتؤذيها بل تريحه حتى تكون برداً وسلاماً؛ وكذا في الآيتين التاليتين نرى جليّاً أنّ كلمة ''بارد'' تؤدّي معنى برد الرّاحة والعافية. و﴿ارْكُضْ برجلك هذا مغتسل بارد وشرابٌ﴾ [ص: 42] و﴿وظلّ من يحموم، لا باردٍ ولا كريمٍ﴾ [الواقعة: 43، 44]. في الآية الأولى: إراحة من نار نمرود، وفي الثانية إراحة من المرض، وفي الثالثة عدم إراحة من العذاب.

[1] ينظر: الكشاف 689/4، وفيه: ((والاستثناء منقطع، يعنى: لا يذوقون فيها بردا وروحا ينفس عنهم حرّ النار، ولا شرابا يسكن من عطشهم، ولكن يذوقون فيها حميما وغساقا وقيل))

[2] غرائب القرآن لنيسابوري 10/30.

ثانيًا، من الحديث النبويّ: «الصّوم في الشّتاء الغنيمة الباردة» كما يقول الكسائيّ وغيره في توضيح ''الغنيمة الباردة'': إنّما وصفها بالبَرْد ، لأنّ الغنيمة إنما أصلها من أرض العدوّ، ولا يُنال ذلك إلا بمباشرة الحرب والاصطلاء بحرّها، يقول: فهذه غنيمة ليس فيها لقاء حرب ولا قتال. وقد يكون أن يسمّى ''باردة'' لأنّ صوم الشتاء ليس كصوم الصيف الّذي يُقاسى فيه العطش والجهد.[1]

ثالثًا، الشواهد من كلام العرب: عيشٌ باردٌ: أي ناعم سَهْلٌ. وقولهم في الدعاء للميّت: ((اللهم برِّد عليه مضجعه))[2].

دراسة الشاهد الشعري: ومن حيث الاستشهاد نرى أنّ أبا عبيدة استشهد بجزء من البيت لامرئ القيس. وامرؤ القيس هو أشعر العرب متميّزا بهذا اللقب أحقّ بالاستشهاد في هذا المجال. المعنى المستنبط من ذلك البيت لم يخالف فيه أحدٌ، حتّى محمد بن جرير الطبري الّذي لم يوافقه في معنى الكلمة في الآية، وهو، أيضًا، لم يعترض على أبي عبيدة في استنباط هذا المعنى من هذا البيت بل اتّفق عليه. وأمّا المفسرون الآخرون الّذين جاءوا بعد أبي عبيدة وذهبوا مذهبه في معنى الكلمة القرآنية، فإنّهم رجحوا، عند الاستشهاد، بيتاً آخر. وهو ما استشهد به ابن قتيبة في غريبه بدون نسبة، وهكذا المعنى المستنبط أيضًا مختلف فيه، إذ قال ابن سيده أنّه قال ثعلب: البَرْدُ هنا: الرّيقُ.[3]

فيتجلّى من هذا البحث كله أنّ أبا عبيدة هو الأوّل من استشهد لهذه الكلمة بالشعر العربي، واستشهاده هو الأمثل في معنى هذه الكلمة، إذ هو متّفق المعنى؛ لم يخالفه أحد فيه، وكذا البيت منسوب إلى قائله، وهو امرؤ القيس يعدّ من عمد الشعر العربي. ومن ثمّ جاء بعده من المفسّرين الّذين استشهدوا لهذه الكلمة جاء بعضهم بالشاهد الّذي جاء به أبو عبيدة وجاء البعض بالبيت الّذي استشهد به ابن قتيبة، وقد بيّنا من قبل أنّ البيت قد وقع في نسبته خلاف وكذا قد وقع الخلاف في المعنى الّذي استنبط من الشاهد لكلمة ''برد'' كما أشرنا إليه.

---

[1] غريب الحديث للهروي 405/1.

[2] غريب الحديث للخطابي 1/ 181.

[3] المحكم والمحيط الأعظم: 322/9.

فهرس المصادر والمراجع

أساس البلاغة: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان. (ط.1: 1422هـ= 2001م)

إعراب القرآن: أبو جعفر النحاس، تحقيق: الدكتور زهير غازي زاهد، عالم الكتب. (ط.2: 1405هـ=1985م)

الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت. (ط.15: 2002م)

التبيان في تفسير القرآن: أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق: أحمد حبيب قصيْر العَاملي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان. (بدون رقم الطبعة و تاريخها)

تفسير ابن عباس ـ المسمى صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن الكريم، تحقيق: راشد عبد المنعم الرّجال، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت. (ط.1: 1411هـ=1991م)

تفسير البغوي (المسمى معالم التنزيل): أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك و مروان سوار، دار المعرفة ، بيروت ـ لبنان. (ط.2: 1407هـ=1987م)

تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن): أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار عالم الكتب، ، الرياض ـ المملكة العربية السعودية. (ط.1: 1424هـ=2003م)

تفسير غريب القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت. (1978م)

تفسير غريب القرآن المجيد: الإمام أبو الحسين زيد بن عي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم، تحقيق: الدكتور محمد يوسف الدين، حيدر آباد، الهند. (ط.1: 1422هـ=2001م)

تنوير المقباس من تفسير ابن عباس: الفيروزآبادي، مطبعة الأنوار المحمدية، القاهرة.

الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي مع المشاركين، مؤسسة الرسالة، بيروت. (ط.1: 1427هـ=2006م)

دُرج الدرر في تفسير القرآن العظيم: (المنسوب إلى :) عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: د. طلعت صلاح الفرحان و د. محمد أديب شكور؛ دار الفكر، عمّان، الأردن. (ط.1: 1430هـ=2009م)

ديوان الأدب: أبو إسحاق بن إبراهيم الفارابي، تحقيق: د.أحمد مختار عمر، مجمع اللغة العربية بالقاهرة. (1394هـ=1974م)

ديوان العرجي: تحقيق د. سجيع الجبيلي، دار صادر، بيروت. (ط.1: 1998م)

ديوان عمر بن أبي ربيعة: تحقيق: د.فوزي عطوي، دار صعب، بيروت. (1980م)

زاد المسير في علم التفسير: أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزيّ، المكتب الإسلامي، بيروت. (ط.3: 1404هـ=1984م) و(ط.4: 1407هـ=1987م)

شعر الحارث بن خالد المخزومي: تحقيق: يحيى الجبوري، بغداد. (1972م)

الصّحاح: اسماعيل بن حمّاد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت. (ط.4: 1990م)

عبد الله بن عباس وغريب القرآن: الدكتور احمد بولوت، برصا، (1986م)

العمدة في غريب القرآن: أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، مؤسسة الرسالة، بيروت. (ط.2: 1404هـ=1984م)

غرائب القرآن ورغائب الفرقان: نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر. (ط.1: 1390هـ=1970م)

غريب الحديث: أبو سليمان حمد بن محمد الخطّابي، عبد الكريم إبراهيم العزباوي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة. (ط.2، بدون تاريخ)

غريب الحديث: أبو عبيد القاسم بن سلّام الهروي، تحقيق: الدكتور حسين محمد محمد شرف، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة. (1404هـ=1984م)

غريب القرآن وتفسيره: أبو عبد الرحمن عبدالله بن يحيى بن المبارك العدوي البغدادي المعروف بابن اليزيدي، تحقيق: محمد سليم الحاج، عالم الكتب، بيروت. (ط.1 :1405هـ=1985م)

الغريبين فى القرآن والحديث: أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي، تحقيق ودراسة : أحمد فريد المزيدي ، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية. (ط.2: 1428هـ =2007م)

الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت. (1407هـ)

الكشف والبيان في تفسير القرآن (المعروف بـ تفسير الثّعلبي): أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت. (ط.1: 1425هـ=2004م)

اللباب في علوم الكتاب: أبو الحفص عمر بن علي ابن عادب الحنبلي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وصاحباه، دار الكتب العلمية، بيروت. (ط.1: 1419هـ =1998م)

لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المعروف بابن منظور الأفريقي، دار المعارف، القاهرة.

اللغات في القرآن (رواية ابن حسنون المقرئ المصري بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنه)، تحقيق: دكتور توفيق محمد شاهين، مكتبة وهبة، القاهرة. (ط.1: 1415هـ= 1995م)

مجاز القرآن: أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى التَّيْميّ، تحقيق: الدكتور فؤاد سزْكين، مكتبة الخانجي، القاهرة.

المحكم والمحيط الأعظم: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيدة المرسي المعروف بابن سيده، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت. (ط.1: 1421هـ=2000م)

مشكل إعراب القرآن: أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسيّ، تحقيق: الدكتور حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة ، بيروت. (ط.3: 1407هـ=1987م)

المشكل من غريب القرآن: مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: الدكتور علي حسين البوّاب، مكتبة المعارف، الرياض. (1406هـ=1985م)

معاني القرآن وإعرابه: أبو إسحاق إبراهيم بن السريّ الزّجاج، تحقيق: دكتور عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت. (ط.1: 1408هـ=1988م)

معاني القرآن وإعرابه: ثعلب

معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي وصاحباه، دار المصرية للتأليف و الترجمة، مصر.

معاني القرآن: علي بن حمزة الكسائي: تقديم: الدكتور عيسى شحاته عيسى، دار قباء، القاهرة. (1998م)

المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، [بدون معلومات النشر].

نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز: أبو بكر محمد بن عُزَيْز السّجستاني، تحقيق: الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت. (ط.1: 1410هـ=1990م)